الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يمكن أن يُقسِمَ بما هو أعظمُ منه أقسم بنفسِه* قائلًا لأُباركنَّك بركةً وأُكثِّرنَّك تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يزيدَ وَرَثَةَ الموعِدِ بياناً لعدمِ تحوُّلِ عزمه توسَّط بالقَسَم* حتى نحصُلَ بأمرَيْنِ لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذين التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوع أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخَلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على رتبةِ ملكيصادقَ رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

الرهبنة السينائيّة

أتى القدّيس يوحنّا السلّميّ، واضع كتاب «السلّم إلى الله»، الذي خصّصت له كنيستنا المقدَّسة الأحد الرابع من الصوم الأربعينيّ المقدّس، إلى دير القدّيسة كاترينا في جبل سيناء كطالبِ رهبنة وهو في السادسة عشرة من عمره. هناك، تدرّب طيلة تسع عشرة سنة، في الجهادات الروحيّة على يد البارّ مارتيريوس، أحد ألمع الشيوخ السينائيّين آنذاك. إثر وفاة معلّمه، آثر يوحنّا الإنتقال إلى حياة العزلة والتوحّد في ناحية «ثولا» الصحراويّة، حيث أمضى أربعين سنة، وهناك وضع كتابه العظيم بطلبٍ من القدّيس يوحنّا السينائيّ، رئيس دير «رايثو».

لا شكّ في أنّ البيئة الرهبانيّة السينائيّة، التي كانت في أوج ازدهارها، ساهمت بشكل كبير في تنمية روحانيّة هذا البار العظيم وصقلها. بدأت الرهبانيّة في سيناء تستقطب طالبي التوحّد منذ مطلع القرن الثالث، أوّلاً لارتباطها بأحداث خلاصيّة كبرى، كاللّقاء الأوّل لموسى مع الله أمام العلّيقة الملتهبة، وخروج العبرانيّين من أرض العبوديّة، واستلام الوصايا الإلهيّة العشر؛ ثانيًا، لبُعدها عن المدُن وسائر التجمّعات المأهولة. كان رهبان سيناء الأوّلون نسّاكًا متفرّقين اختاروا المغاور وشقوق الجبال كمناسك. مع ازدياد أعدادهم، على مدى السنين، صاروا يُنشئون تجمّعات رهبانيّة (أساقيط جمع إسقيط) مكوّنة من مجموعة مناسك تتوسّطها كنيسة مركزيّة، يلتقون فيها أيّام الآحاد والأعياد حول الذبيحة الإلهيّة، يعود بعدها كلٌ منهم إلى عزلته في منسكه. طبعًا، لم يسلَم النسّاك السينائيّون من هجمات البرابرة والإضطهادات المتنوّعة، ولو بشكل أقلّ من المُدُن، بسبب وعورة الصحراء وصعوبة الوصول إليهم، لكنّهم عانوا كثيرًا واستشهد منهم كثيرون.

سنة ٣٢٧، إثر وصول القدّيسة هيلانة إلى أورشليم لبناء كنيسة القيامة، صادف وجود بعض الرهبان السينائيّين هناك، الذين أتوا يحجّون إلى الأماكن المقدّسة.

العدد ٢٠١٩/١٤
الأحد ٧ نيسان
الأحد الرابع من الصوم
(أحد القديس يوحنا السلّمي)
تذكار الشهيد كليوبيوس والبار جرجس
اللحن الرابع
إنجيل السَحَر الأول

عرف أولئك بوجود الملكة القدّيسة، فسارعوا إليها طالبين أن تبني لهم كنيسة على جبل سيناء، في موقع العلّيقة المُلتهبة. إستجابت الملكة لهم فورًا، وأرسلت معهم فريقًا من البنّائين، وأُنجز بناء الكنيسة سنة ٣٣٠، ولا يزال الرهبان حتّى الآن يسمّونها «كنيسة القدّيسة هيلانة» تحبُّبًا. كذلك، بنى فريق القدّيسة هيلانة، بالقرب من الكنيسة، بُرجًا ما زال قائماً حتّى اليوم.

بُعَيد اعتلائه العرش الإمبراطوريّ سنة ٥٢٧، قام يوستينيانوس، وزوجته الملكة ثيودورا، ببناء كنيسة كبرى في موقع العلّيقة (ما زالت الكنيسة الأولى في داخلها)، إضافةً إلى غرف سكن للرهبان، وأسوار عالية تحمي المُجَمَّع كلّه. أيضًا، أفرز الإمبراطور جنودًا يقيمون هناك لحراسة الدير. لا شكّ في أنّ مبادرة الملك وزوجته ساهمت في ازدياد أعداد الرهبان، ليس فقط في الدير الكبير، بل في سيناء ككلّ. حسب المؤرّخين، بلغ عدد الرهبان السينائيّين، في القرن السادس، ٨٠٠ راهب. تجدر الإشارة إلى أنّ آباء الدير الكبير، ما زالوا يقيمون تذكار الملكين يوستينيانوس وثيودورا كَمؤسِّسَي الدير.

بعد الفتح العربيّ لمصر، سنة ٦٤١، تضاءل عدد الرهبان في سيناء حتّى وصل إلى أقلّ من ١٠٠ في القرن التاسع توزّعوا على الديرَين الباقيين: الدير الكبير، ودير رايثو. بيد أنّ تعزيةً كبرى حصلت للرهبان، لا سيّما في الدير الكبير، وهي العثور على بقايا العظيمة في الشهيدات كاترينا ونقلها إلى الدير. بعد ذلك، توافد إلى سيناء رهبان من سوريا وجورجيا، هربًا من الإضطهادات، حاملين معهم عددًا من المخطوطات القيّمة والأيقونات والذخائر. معظم هؤلاء استقرّوا في الدير الكبير، الذي بات يعرف بدير القدّيسة كاترينا.

كان زمن ولاية الخليفة الحاكم بأمر الله (القرن ١١) قاسيًا على الرهبان السينائيّين. إلّا أنّ بناء المسجد والمئذنة داخل أسوار الدير الكبير، في تلك الفترة، خفّف قليلاً من معاناة الآباء وشدّد، في الوقت عينه، أواصر الإلفة بينهم وبين قبائل البدو المستوطنة في تلك النواحي، حتّى صار أولئك يعتبرون أنفسهم حماة الديرَين. هذا وبقيت أجواء الإلفة والسلام تتوطّد على مرّ السنين، حتّى أصبح الديران، خصوصًا دير القدّيسة كاترينا، محجّة آمنةً للمسيحيّين من كلّ أنحاء العالم. منذ أن أصبحت مصر جزءًا من الإمبراطوريّة العثمانيّة، مطلع القرن السادس عشر، إنفكّت عزلة الرهبنة السينائيّة، وعاد ارتباط الدير الكبير بالبطريركيّات الأرثوذكسيّة القديمة، مع احتفاظه بنظام الإدارة الذاتيّة التي لا تزال قائمة.

صلاة التوبة

يعلن لنا الربّ يسوع، من خلال إنجيل اليوم، الإنطلاقة نحو الآلام الخلاصيّة، فتتجدّد الدعوة في أواخر الصوم، كما في بداياته، إلى التوبة كتهيئة لاستقبال العيد. لذا، نقرأ في الخميس المقبل قانون التوبة الذي وضعه القدّيس أندراوس الكريتيّ، ونتابع تلاوة صلاة التوبة التي كتبها القدّيس أفرام السريانيّ: «أيّها الربّ وسيّد حياتي أعتقني من روح البطالة

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجدَ له قائلًا يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثما أخذهُ يصرعُهُ فيُزبِدُ ويصرِفُ بأسنانه وييبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرِجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلاً أيُّها الجيلُ غيرُ المؤمنِ إلى متى أكونُ عندكم حتى متى أحتمِلكم. هلمَّ بهِ إليّ* فأتوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرَعهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يتمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّنْ علينا وأغِثْنا* فقال له يسوعُ إن استطعتَ أنْ تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِنْ ساعَتهِ بدموعٍ وقال إنّي أُؤمِنُ يا سيّد. فأَغِثْ عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرك أنِ اخرُجْ منه ولا تعُدْ تدخلُ فيه* فصرخ وخبَطهُ كثيراً وخرج

منه فصار كالميتِ حتى قال كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخل بيتاً سألهُ تلاميذُهُ على انفرادٍ لماذا لم نستَطِع نحن أن نُخرِجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أنْ يخرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يَدْري أحدٌ* فإنَّه كان يعلّمُ تلاميذَهُ ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَه وبعد أن يُقتَل يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

أذكّر وأنصح محبّتكم بألاّ تنصتوا البتّة إلى «السيّئ النيّة» وألّا تدعوا أنفسكم تؤخذون ثانية بتلك العادة الرديئة، عادة الشراهة التي لا تشبع، وألّا تعودوا أدراجكم نحو إشباع الرغبات السيئة القديم.لا نقبلنّ الآن أن نخسر ما قد ادّخرناه بل فلنجتهد بالحريّ لنزيد عليه ونكثّره، وما حظينا ببنائه سالفاً لا نُشقيّن أنفسنا الآن بهدمه (غل ٢: ١٨). فليتذكر كلّ منكم المنفعة الموجودة في الصوم، وأيّة عطايا كافأه بها الله في هذه الأيام. الصوم، هذا الطبيب لنفوسنا، إنّما يبدّد الظلام بهدوء، بالمعنى المجازيّ، والفضول وحبّ الرئاسة والكلام البطّال. وأنعِم عليّ أنا عبدك الخاطئ بروح العفّة واتّضاع الفكر والصبر والمحبّة. نعم، يا ملكي وإلهي، هَبْني أن أعرف ذنوبي وعيوبي وألّا أدين إخوتي، فإنّك مبارك إلى الأبد». نتلو هذه الصلاة في السَّحَر والغروب وصلاة الساعات والنوم الكبرى، مترافقةً مع سجدات كبيرة ننحني فيها لتلامس رؤوسنا الأرض، دلالةً إلى توبتنا وتواضعنا وتخلّينا عن خطايانا. إذًا، الصوم هو موسم التوبة والعودة إلى الأحضان الأبويّة.

يذكر أحد الآباء، معلِّقًا على هذه الصلاة، أنّ الربّ يسمح أحيانًا بأن يتعرّض الإنسان لِما قد يبدو ظلمًا، لكي يبعدَ الرب عنه أيّ سوءٍ قد يكون أعظم أو أكبر أو أشرّ، بغيةَ وضعِه على سكّة الصلاح والمحبّة. الظلم الذي قد نعانيه يذكّرنا روحيًّا بهشاشة هذا العالم وأنظمته وقوانينه وقِيَمه ونقصانِها. يدعونا هذا إلى التركيز على الربّ ووصاياه ووضعهما نصب أعيننا. لذا، يجب أن يكون موقفنا وردّة فعلنا، تجاه أيّ ظلمٍ يواجهنا، هدوءًا وتواضعًا وامتنانًا وشكرانًا، من دون أن نشعر بالحزن والثّقل.

لعلّ ما اختبره القدّيس أفرام في شبابه كان الدافع وراء كتابته صلاة التوبة. لقد اختبر عِظم التوبة ورحمة الربّ تجاه كلّ تائبٍ حقيقيّ. تذكر المصادر أنّ قديساً عاش في شبابه حياةً طائشة، فارتكب بعض الأعمال المؤذية للروح، إلاّ أنّه لم يُعاقَب على أيٍّ من هذه الخطايا. مرّةً، سرق أحدهم خرافَ جيرانه، فاتُّهم أفرام بالسرقة زورًا وظلمًا، نظرًا لِما عُرف به من طيش، فسُجن رغم براءته. إغتمَّ أفرام كثيرًا وابتدأ ينتحب ويصلّي إلى الله شاكيًا ما حلَّ به جَورًا. إلاّ أنّ مقاصد الله ممّا حصل معه كانت أعظم ممّا كان يشتكي منه أفرام. سمع أفرام، في السجن، قصص المساجين الآخرين، وكان، كلّما سمع قصّةً، يعي عِظَم خطاياه، إذ رأى في خطايا السجناء ما ارتكبه هو ولم يُعاقَب عليه. عاد إلى نفسه (تاب) مدركًا أنّ ما أوصله إلى السجن ليس الخراف المسروقة، بل خطاياه التي ارتكبها على مرّ الزمن. إعترف أمام الله بما قام به، معلنًا توبة «صادقة»، وشاكرًا الله على الدرس الروحيّ العظيم. سرعان ما أُعلنت براءته وأُطلق سراحه، فكانت هذه الحادثة مناسبة لتجلّي عمل الربّ في هذا الإنسان. لقد دخل السجن خاطئًا وخرج منه «قدّيسًا». يقول أحد الآباء إنّ الفرق بيننا وبين القدّيسين هو أنّهم خطأة تابوا عن خطاياهم. لا يُولد الإنسان قدّيسًا، إنّما إنسانًا عاديًّا يسعى من خلال التوبة إلى القداسة، والربّ سيقبل توبته من دون شكّ.

هكذا، يدعو القدّيس أفرام المؤمنين ألاّ ييأسوا من الحصول على الخلاص: «إن خطئنا ألف مرّة، فلْنَتُبْ ألف مرّة»، ذلك أنّ الربّ وعد بألاّ يُخرج خارجًا مَن يأتي إليه (يو ٦: ٣٧). يتحرَّر المثقَلون بأحمال الخطيئة إن تابوا ورموا خطاياهم أمام السيّد.

هذه الصلاة الصغيرة تحوي عشر طلبات عظيمة في نتائجها، وهي تمسّ قلب الإنسان مباشرة وتقوده نحو التوبة الصادقة. بدايةً، يعترف الإنسان بأنّ الربّ يسوع ربّه وسيّده، مثلما فعل (على لسان عرّابَيه) يوم معموديّته: «أؤمن به أنّه ملكٌ وإله»، أي جعل الربّ ملكًا عليه وسلّمه ذاته كليًّا. هكذا، فالتوبة هي تجديد لمعموديّة الإنسان، وغسلٌ للثوب الأبيض الذي لبسه يوم معموديّته. بعدئذٍ، يطلب إلى الربّ أن يعتقه

(يحرّره) من روح البطالة أي الكسل. لا يفعل الكسول شيئًا في حياته، فيصبح عمله التلهّي بالآخرين، الأمر الذي يقوده إلى الفضول (الحشرية) فيصبح تركيزه على خطايا الآخرين وهفواتهم، وينسى أن يعالج خطاياه. يقود الفضول إلى الكلام البطّال، الفارغ والمؤذي للآخرين، تاليًا يصبح الإنسان ديّانًا بكلامه. لذا، يطلب في آخر الصلاة «ألاّ أدين إخوتي». الربّ وحده هو الديّان العادل. أما الذي يدين الآخرين، كالفريسيّ، فينصّب نفسه ربًّا وإلهًا. أيضًا، يطلب الإنسان أن يعتقه الله من روح البطالة وحبّ الرئاسة عملاً بوصيّة الربّ: «مَن أراد أن يكون فيكم عظيمًا، فليكن لكم خادمًا» (مت ٢٠: ٢٦).

الإنسان كالوعاء، إذا أفرغنا منه الماء الوسخ فهذا لا يعني أنّه صار نقيًّا، بل علينا أن نغسله ونملأه ماءً نقيًّا. يطلب القدّيس أفرام، بعد الإنعتاق من الشرور، أن يُنعم الله عليه بروح العفّة. لا تنحصر العفّة فقط في الإبتعاد عن الزنى، بل تشمل كلّ شيء. يمكن للإنسان مثلاً أن يكون عفيفًا وزاهدًا بالطعام، فيأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل. من جهة إتّضاع الفكر، إنّ التواضع أمّ الفضائل كلّها على ما يقول القدّيس إسحق السريانيّ. مَن لا يملك التواضع لا يستطيع أن يملك الفضائل الأُخرى. أيضًا، علينا أن نصبر، لأنّنا لا نعرف مقاصد الله ممّا يسمح أن نمرّ به، «والذي يصبر إلى المنتهى يخلص» (مت ٢٤: ١٣). أخيرًا المحبّة، على مثال محبّة الله لنا، الذي لم يبخل بأن يقدّم ابنه الوحيد من أجل خلاصنا.

الجزء الأخير من الصلاة يحوي الطلب إلى الله ليهب المؤمن نعمة التمييز، فيعرف ذنوبه وخطاياه. الإبن الشاطر عاد بعدما اكتشف خطيئته ووعاها، وأبوه كان ينتظره. هكذا، ينتظرنا الربّ. فلنطرح عنّا كلّ اهتمام دنيويّ وكلّ خطيئة، ولنستعدّ لاستقبال ملك الكلّ في عيد الفصح المجيد.

منشورات المطرانية

فيما نحن على عتبة الأسبوع العظيم المقدّس، تذكّر مطرانيّة بيروت بأنّ كتاب الصلوات الخاصّ بهذه الفترة المباركة موجود في ديوان المطرانيّة وفي مكتبة الرجاء. وللمناسبة، يهمّ المطرانيّة أن تحذّر من أنّ محاولات عديدة حدثت لتصوير منشوراتها وبيعها بشكل غير قانونيّ. لذلك، فإنّ المنشورات التي لا تحمل رمز (Logo) المطرانيّة، ليست خارجة من دار مطرانيّة بيروت، ويُستَحسَن عدم تشجيع بائعيها بالشراء منهم، لأنّنا كمسيحيّين لا نشجّع على المضيّ في الخطأ، بل نحذّر منه ونعلّم الصواب. عليه، فإنّ منشورات مطرانيّة الروم الأرثوذكس في بيروت، ومنشورات دار Berytus التابعة للمطرانيّة، تُباع «بالجملة» حصرًا في ديوان المطرانيّة، وفي مكتبة الرجاء، كما يمكن للمؤمن أن يجدها «بالمفرّق» في مكتبات البيع التابعة لكنائس الأبرشيّة.

للإطلاع على أخبار الأبرشية:

www.facebook.com/metbei

أو

www.quartos.org.lb

والبرقع الذي تبسطه الخطيئة على النفس، طارداً إيّاه كما تفعل الشمس بالضباب. الصوم يجعلنا نرى بالعقل ذاك الجو الروحيّ الذي فيه ترتفع، بل تسطع على الدوام الشمس التي لا تغرب، المسيح إلهنا. الصوم يخترق ويليّن كل ما كان قاسياً في القلب، وحيث كان السكر يسود قبلاً يفجّر ينابيع الندم. أيّها الإخوة، أناشدكم أن يجتهد كلٌّ منا لتحقيق ذلك كله في نفسه. إذ حالما يتحقق ذلك، نمخر مع الله بسهولةٍ بحر الأهواء إلى خاتمته، فنعبر أمواج التجارب الموجهة إلينا من طاغيتنا القاسي، ونبلغ مرفأ اللّاهوى. لكن، لا يمكن القيام بذلك كلّه يا إخوتي في يومٍ واحد، ولا في أسبوع، بل بكثرة الوقت والجهد والتعب.

الصوم هو المنطلق والأساس لكلّ نشاطٍ روحيّ. إذاً، كلّ ما ستبنيه على هذا الأساس لا يمكن سقوطه ولا انهياره من بعد، نظير ما يشيَّد على الصخر الراسخ. لكن، أتنتزع هذا الأساس لتستبدله ببطنٍ ملآن جداً ورغباتٍ فاسقةً؟ كلّ هذا، إنما يُسقط صرح الفضائل تماماً وقد جُرّ كالرمل بالأفكار الرديئة وسيل الأهواء (مت ٧: ٢٦–٢٧؛ لو ٦: ٤٩).

القديس

سمعان اللاهوتي الحديث